مجلة الإبراهيمي للدراسات النفسية والتربوية
(ISSN: 2661 – 7897 :رت م د) (EISSN:2800 - 1524 :رت م د إ)
مجلد (04) - عدد (02) ديسمبر (2022) ص ص 69 – 89 .

إشكالية تاريخية النص الديني. قراءة في دفاتر محمد أركون.

Historical problematic religious text reading in the notebooks of Muhammad Arkoun

1، محمودي سيف الدين. 2، محمودي سليم.
1. جامعة محمد بوضياف المسيلة، seyf_eddin.mahmoudi@univ-msila.dz
2 . محمد البشير الإبراهيمي/ برج بوعريريج/الجزائر، salim.mahmoudi@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام:19/10/ 2022 تاريخ القبول: 04/12/ 2022 تاريخ النشر: 27/02/ 2023

- ملخص:

بالنظر إلى الأقلام التي تدفق حبرها في فضاء الفكر الإسلامي المعاصر، نجد أن أبرزها كان قلم المفكر الجزائري المعاصر محمد أركون، حيث قدم هذا الأخير مشروعه الفكر تحت عنوان نقد العقل الإسلامي، والذي حاول فيه نقد العقل الإسلامي من الداخل عكس ما قام به المستشرقون الذين كانوا غرباء عن مادة دراستهم، فأركون أراد تطبيق المناهج الغربية على التراث الفكري الإسلامي، فكانت المنهجية التاريخية أبزر ما طبقه في دراسته المعمقة، حيث أراد أن يميز بين الظاهرة الدينية والظاهر الإسلامية، وكذا المرحلة التي مر بها القرآن الكريم من مرحلته الشفهية إلى مرحلته المكتوبة النهائية التي هو عليها اليوم، كما اهتم أركون بقضية الأنسنة منذ أطروحته للدكتوراه والتي عالج فيها نزعة الأنسنة في الفكر الإسلامي، وعلى هذا الأساس تناول أركون قضية الكلام المطلق والكلام النسبي و مجتمعات الكتاب وغيرها من المواضيع في الفكر الإسلامي الذي طال عليه الزمن دون تجديد بحسب تعبيره.

- الكلمات المفتاحية: التاريخية، الظاهرة القرآنية، الظاهرة الإسلامية، الأنسنة.

Abstract:

Looking at the pens whose ink flowed i the space ofcontemporary Islamic thought, we find that themost prominent of them was the pen of the contemporary Algerian thinker Mohamed Arkoun, where the latter presented his thought project under the title Critique of the Islamic Reason, in which he tried to criticize the Islamic mind from within, unlike what the honorable people who were Strangers from the subject of their studies, Farqun wanted to apply the Western curricula to the Islamic intellectual Qur'an, so the historical methodology was the most prominent of what he applied in his in-depth study, as he wanted to distinguish between the religious phenomenon and the Islamic phenomenon, as well as the stage that the Holy Qur'an passed through from its shaky stage to its final written stage that It is on it today, as Arkoun has taken care of the issue of humanism since his doctoral thesis, in which he treated the tendency of femininity in Islamic thought.

Keywords: The historical, phenomenon the Qur'anic phenomenon, the Islamic phenomenon, its expression.

***المؤلف المرسل:** محمودي سيف الدين، الإيميل: **seyf_eddin.mahmoudi@univ-msila.dz**

مقدمة:

يعتبر المفكر الجزائري محمد أركون من بين أبرز الأسماء التي كانت لها جرأة قَلّ نظيرها في أواسط المفكرين المعاصرين، فلقد حاول نقد العقل الإسلامي الذي لم يتغير منذ 14 قرن من الزمن، والذي يتكئ على أفكار ومذاهب كانت صالحة لزمانها وليست لزماننا ماعدا القرآن الكريم الذي هو صالح لكل زمان ومكان، ونظرا لتشبعه بالحداثة الغربية وإفرازاتها في مجال البحث العلمي وتعدد مناهجها العلمية، أراد أركون تطبيق هذه المناهج الفاحصة على الفكر الإسلامي فكانت المنهجية التاريخية أبرز ما قام بتطبيقه على التراث الإسلامي، فميز بين الظاهرة الدينية والظاهر الإسلامية مبيينا أن القرآن هو الوحيد الذي نزل من السماء أما ما عداه فهي اجتهادات قابلة للنقد، وكذلك أراد أركون تبيين المسافة والفجوات التي قد تطرأ على القرآن الكريم بين مرحلته الشفهية في حياة الرسول ﷺ وبين مرحلة تدوينه بعد وفاته ﷺ أي في عهد عثمان ﷺ، ولعل نزعة الأنسنة التي عالجها أركون موضحا فيها الفرق بين الكلام المطلق(كلام الله)، والكلام النسبي (كلام البشر)، وكذا مجتمعات الكتاب وأهل الكتاب.

إن النتيجة الفعلية لتطبيق المنهجية التاريخية، جعلت محمد أركون يموضع العقل الاسلامي داخل الفكر الاسلامي في حد ذاته وليس خارجه، مما جعله يميز بين لحظات تاريخية لتشكل القرآن الكريم، وبذلك فهو يميز بين الظاهرة الدينية والظاهرة الإسلامية، وبين القرآن الشفهي في عهد النبي ﷺ والقرآن المكتوب بعد وفاة النبي ﷺ، وكذا دعوته إلى أنسنة النص الديني.

وعليه نطرح الإشكال الآتي:

-فيما تتمثل اللحظات التاريخية لتكشل النص الديني من وجهة نظر محمد أركون؟

-وكيف طبق نزعة الأنسنة على النص الديني؟

ولعل أبرز الدراسات التي اهتمت بفكر محمد أركون نجد ما قدمه الدتور فارح مسرحي ضمن عديد المؤلفات بداية بكتابه " الحداثة في فكر محمد أركون" والذي كان رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة جامعة باتنة، ويليه كتابه " المرجعية الفكرية لمشروع أركون الحداثي" وأيضا كانت أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة باتنة والتي نال على إثرها جائزة أركون للسلام. وكذلك ما قدمه الدكتور مصطفي كيحل كتابة تحت عنوان الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون.

1بين الظاهرة الدينية والظاهرة الإسلامية.

إن التمييز بين الظاهرة الدينية والظاهرة الاسلامية عند محمد اركون نابع من الفكر الغربي، الذي يميز بين التوراة واليهودية، وبين الانجيل والمسيحية، ولهذا اراد اركون ينقل هذا التمييز الى الفكر الاسلامي.

1مفهوم الظاهرة الدينية و خصائصها:

1-1مفهوم الظاهرة الدينية: يبين أركون مفهوم الظاهرة الدينية بقوله " إن الظاهرة الدينية هي مجمل السمات المميزة التي تتيح لنا ان نقبض على خصوصية الذروة الدينية بالقياس إلى الذروة السياسية، والذروة الثقافية، والذروة القانونية، والذروة الاخلاقية، والذروة الجمالية او الفنية، والذروة الاقتصادية " **(أركون، 1999، ص 272).**

وتمثل الذروة الدينية العليا برج مراقبة وضبط، يمثلها في الاسلام المفتي والدعات، اما في المسيحية فيمثلها الفاتيكان.

ويضيف أركون قائلا عندما يتحدث عن الظاهرة القرآنية التي هي أحد تجليات الظاهرة الدينية، فهو يتحدث "هنا عن الظاهرة القرآنية كما يتحدث علماء البيولوجيا عن الظاهرة البيولوجية او الظاهرة التاريخية " **(أركون، 1999، ص 272).**

والهدف من كل هذا هو وضع كل التركيبات العقائدية الاسلامية وكل التحديدات اللاهوتية والتشريعية والادبية والبلاغية والتفسيرية ...الخ، على مسافة نقدية بغرض تعريتها والكشف عن آليات إشتغالها بإعتبار انها فرضت نفسها بشكل منزه وبعيد عن الخطأ وغير قابل للنقاش.

ويشير أركون الى ان اول من استعمل مصطلح الظاهرة القرآنية هو المفكر الجزائري مالك نبي، و"لكن ضمن منظور ديني تبجيلي تقديسي ضمن لكتابه نجاحا كبير في الاوساط الأصولية المزدهرة" **(أركون، د ت، ص 186)**، وهذا المنظور التبجيلي هو ما أراد اركون الابتعاد عنه.

1-2خصائص الظاهرة الدينية: لمعرفة خصائص الظاهرة الدينية يستخدم اركون إستراتيجية الحفر الاركيولوجي من أجل إعادة توزيع مضامين تشكيل العقيدة الدينية، ومن بين هذه الخصائص نذكر:

-نظام اللغة الدينية: "إن الديني ينبثق ويتطور وينتقل إلى الناس ويعاد تنشيطه عن طريق الذاكرة الشفهية أو الكتابية أو الاثنين معا" **(أركون، 1999، ص283)**، ولذا ينبغي إستكشاف التعبيرات والتجليات اللغوية والسيميائية الدلالية والاشارية الحركية لهذه الذاكرة لكي يتم التوصل إلى السلالات المؤمنة التي تشكل التراث الحي .

-الحقيقة الدينية المطلقة والنص الرسمي المغلق أو الناجز نهائيا: يمثل محلا ممتازا من اجل الاشكلة الانثربولوجية، وذلك لسمتين اساسيتين هما:"ان الحقيقة الدينية معاشة على هيئة التصديق الكامل بعقائد/لاعقائد مسجلة في النص الرسمي المغلق ومنقولة عن طريقه ومكررة من خلاله "**(أركون، 1999، ص284)**،

-التنافس بين الذرى الثلاث. الدين. السياسة. المجتمع :هذه متنافسة على إعادة إنتاج المعنى وتسيير شؤون المجتمع، ودراسة هذه الذرى حسب أركون "ليس من أجل التأكيد على مكانتها المهيمنة فعليا في الساحة السياسية بشكل خاص، وإنما على العكس من اجل إخضاعها لإعادة تقييم نقدية، على ضوء المسارات التاريخية الاخرى"، **(أركون، 1999، ص285)**، وذلك عن طريق الحفر في هذه الذرى الثلاث، وفي القيم التي تحسم مصير كل كائن بشري.

-التجربة البشرية الالهية: ومعنى هذا هو موضعة الظاهرة الدينية داخل علوم الانسان والمجتمع (علم النفس، علم الاجتماع، الانثربولوجيا، الالسنيات، السيميائيات...الخ). حتى يتم كشف الحجب عن المضمر من الصريح.

_الأمل بصفته قوة لتحريك الكائن البشري وتحققه على هذه الارض و ازدهارها: وهي ما يلحق بذلك الامل من موضوعات، تتعلق بمصير الكائن الحي مثل الخلاص والنجاة والاخلاق والموت والحياة وغيرها من هذه الموضوعات التي تشكل حافز لتحريك الانسان على هذه الارض.

_كذلك من خصوصية الظاهرة الدينية الاعتقاد الديني الذي يقوم على مجموعة من القيم المشتركة "كالمبادئ و المسلمات والتحديدات المرتبطة بالموضوعات الكبرى المشَكلة للإعتقاد الديني" **(أركون، 1999، ص112).**

وتتمثل هذه الخصوصية او الموضوعات حسب اركون في "الوحي، كلام الله، الخلق، الميثاق، الوظيفة النبوية، الخطاب النبوي، الكتابات المقدسة، الكتاب بالمعنى المتعالي والمثالي للكلمة، قانون الكتابات المقدس، الايمان، الطاعة المحبة لله، تسليم النفس لله، الانسان على صورة اللهن القانون الالهي (او الشريعة)، العدالة، الشعائر والعبادات، البعث والنشور، الحياة الابدية، الخلود، النجاة من الدار الاخرة ".**أركون، 1999، ص112).**

_تاريخية الظاهرة الدينية : وبحسب اركون فإن الظاهرة الدينية، ظاهرة تاريخية تخضع للتاريخ وليست فوق التاريخ، "فهي ظاهرة خاضعة للتاريخية بمعنى انها خاضعة لتغيرات السياسية والاجتماعية وهي تتغير بتغيرها، ولذا ينبغي دراسة الوحي دراسة تاريخية "**أركون، 1996، ص75).**

2 مفهوم الظاهرة الاسلامية (الحدث الإسلامي).

تبين هذه التسمية و تدل على المجتمعات المجبولة بالظاهرة الاسلامية، وليس المجتمعات الاسلامية، لان هناك عوامل اخرى تؤثر في المجتمعات وليس الدين فقط، فالإسلام ليس وحده العامل المؤثر، و"إنما هناك عوامل أخرى كالعقائد القديمة السابقة عليه والتي تختلف من مجتمع إلى آخر ، فأندونيسيا مثلا مجتمع إسلامي، ولكن ليس الاسلام في أندونيسيا هو نفسه الاسلام العربي او الاسلام الايراني او الاسلام الباكستاني ...الخ" **(أركون، د ت، ص 230)**،ولهذا توجد اختلافات من مجتمع إلى آخر، بل وحتى في الاسلام العربي توجد فوارق لها جذور قديمة، كم أن

المجتمع لا يتأثر وحده وإنما بكل مكوناته مثل اللغة والاقتصاد والمناخ وغيرها فالعامل الديني واحد من هذه العوامل.

كما أن الظاهرة الاسلامية تختلف عن الاسلام، لان الاولى مثلها مثل الظاهرة المسيحية او اليهودية، لا يمكن فصلها عن ممارسة السلطة السياسية، لأن السلطة السياسية تستغل البعد الروحي لصالحها وبحسب اركون فإن الظاهرة الاسلامية منفصلة عن الاسلام، ويظهر ذلك في قوله " ولكني على الرغم من ذلك لا أزال مصراً على القول بأن تفكيك الظاهرة الاسلامية كما وضحته انفاً هو الذي يقدم لنا إطار التحليل و التأويل لكل أشكال الخطاب الإسلامي المعاصر و لكل أنواعه و مستوياته، وإذا ما أردنا أن نقول الامور بشكل أفضل تحدثنا عن الخطابات الاجتماعية التي تظهر في المجتمعات المجبولة بالظاهرة الاسلامية وليس عن انواع الخطاب الاسلامي المعاصر " "**(أركون، 1999، ص ص 244-245).**

كما نجد أركون يستخدم مصطلح "الحدث الاسلامي" بدلاً من مصطلح الإسلام الشائع على كل شفة ولسان، لأنه يتيح لنا أن نصيب عدة أهداف في ضربة واحدة، وتتمثل هذه الأهداف فيما يلي:

"_تجذير الإسلام من التاريخية بدلاً من ان يبقى مفهوماً مجرداً خارج الزمان والمكان" **(أركون، 2001، ص ص 10-11).**

ومعنى هذا هو دراسة الإسلام دراسة تاريخية وإنزاله من درجة التعالي إلى درجة الدراسة الميدانية المعاصرة التي تعتمد على علوم الانسان والمجتمع من اجل إعطاء دراسة حداثية تواكب متطلبات الحاضر.

"_يتيح لنا ان ننظف مفهوم الإسلام من كل التراكمات و الاضافات الحشوية و انواع الخلط التي لحقت به على مر القرون" **(أركون، 2001، ص 11).**

ومعنى هذا أننا نعيد إحياء مفهوم الإسلام بنظرة معاصرة بعيدة عن الكلمات الرنانة والامجاد التي صنعها المسلمون في فترة من الفترات، بل يجب أن نعي ونفهم واقعنا اليوم.

_يزيل البداهة العفوية عن الإسلام الذي نعتقد بأننا نفهم ما هو مجرد ان نلفظ كلمة إسلام، أي أنه يخلع الايمان التقليدي للمسلمين عن الاسلام و كذا الفهم السطحي و المجرد للكلمة الاسلام.

ومن خلال هذا يظهر لنا بأن "هناك خلط بين المعرفة التاريخية والمعرفة التبجيلية والتقليدية السائدة، وقد تزايد هذا الخلط والاضطراب في استخدام كلمة إسلام منذ ان كانت أنظمة الدولة الناهضة بعد الاستقلال قد استولت على النظام الرمزي الأعلى الذي يتجسد في الإسلام" **(أركون، 2001، ص 11).** أي ان المعرفة التاريخية تخضع لدراسة تاريخية علمية تواكب مناهج العصر، أما

المعرفة التبجيلية والتقليدية السائدة فهي تُسلم بكلمة الإسلام دون تمحيص او نقد او دراسة علمية أي انها معرفة موروثة.

إن مفهوم الحدث الاسلامي يبين كيفية احتكار رجال الدين لأول مرة من الامويين، ثم ازداد هذا الاحتكار فيما بعد، ثم أصبحت الزوايا الدينية او الروابط الصوفية التي انتشرت في كل الامكنة البعيدة التي تستعصي على سيطرة السلطة المركزية، وأصبح هذان الشيئان يمثلان الخصيصتين العظيمين للحدث الاسلامي بداءً من القرن الثالث عشر على الاقل." **(أركون، 2001، ص 12).**

ولهذا فإن الاسلام كحدث ق تعرض كثير من التحول التاريخي عبر القرون، وهنا يتخذ مصطلح الحدث الاسلامي كل فاعليته.

فالإسلام بهذا المعنى يعتبر كحدث، فهو مرتبط بظروف تاريخية معينة يتأثر بها ويؤثر فيها، ولهذا يقول أركون" وأحب فيما يخصني أن استخدم مصطلح الظاهرة الاسلامية او الحدث الاسلامي بدلاً من مصطلح الاسلام كما يفعل الباحثون عموما. لماذا؟، لأن المصطلح الأول يدل على حدث تاريخي واقعي يمكن حصره بدقة، في حين ان المصطلح الثاني أصبح وكأنه كتلة واحدة، فوق تاريخي، عمومي، غامض." **(أركون، 2001، ص 66).** ويضيف محمد أركون قائلاً" ان المصطلح الأول (الظاهرة الإسلامية) يتيح لنا أن ندرس بشكل تاريخي وتساؤلي (أي نقدي) ديناً معيناً هو الاسلام، إنه يتيح لنا أن ندرسه في أصله ومنشأه وتحديداته ومقولاته وتوسعه ووظائفه وآفاق معينة، وكل هذه الأشياء تغيرت مع مرور الزمن "**(أركون، 2001، ص 66).**

ولهذا فإن استخدام مصطلحي الحدث القرآني والحدث الإسلامي لكي يُرفع اللُبس وتنقشع الاوهام المحيطة بكلمة "الاسلام" وكلمة "القرآن" وذلك من اجل وضعها على مسافة نقدية كافية خاصة فيما يتعلق بتلك الظواهر والتراكمات التي لحقت بهما بمرور الزمن، وهو عمل يتطلب المرور بعصور تشكلهما من اجل الوصول الى المعنى الاصلي في طزاجته الأولى.

3بين الظاهرة الدينية (الظاهرة القرآنية) والظاهرة الإسلامية (الحدث الإسلامي).

إن التمييز بين الظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامية ليس تمييزاً على تعالي القرآن وتساميه، وإنما هذا التمييز نابع من " أن الظاهرة القرآنية تتميز عن الظاهرة الإسلامية بواسطة الشروط اللغوية والسيميائية والتاريخية لنشأتها "**(أركون، 1996، ص 72).** وبهذا المعنى فإن الظاهرة الإسلامية لا يمكن فصلها على ممارسة السلطة السياسية، أما الظاهرة القرآنية فهي تتميز بواسطة الشروط اللغوية والسيميائية والتاريخية وغيرها.

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هناك مسافة نقدية بين الحدث القرآني في القرن السابع ميلادي، وبين الحدث الإسلامي الذي تشكل فيما بعد.

وهذا التمييز الذي يقيمه اركون بين الحدث القرآني والحدث الإسلامي راجع إلى "أن الحدث القرآني هو في جوهره حدث لغوي وثقافي يعود إلى القرن السابع في الجزيرة العربية، إنبجاس لغوي خصب يحتمل الكثير من التأويلات. أي انه مفتوح على الاحتمالات المعنوية والدلالات المتعددة لأن الحدث القرآني له بنية مجازية رمزية، في حين أن الظاهرة الإسلامية او الحدث الإسلامي هو هو جملة التجسيدات المادية للحدث القرآني، حيث حُولت البنية المجازية والحالة الرمزية إلى قوانين وقواعد عامة لضبط حاجيات المجتمع في القرون الهجرية الأولى " **(كيحل، 2011، ص168)**.

ولهذا فإن عملية الفصل بين الحدث القرآني والحدث الإسلامي هي عملية ضرورية لان الانتقال والمرور من الأول الى الثاني معقدة وغامضة، ولرفع اللُبس عنها لابد من استخدام المنهجية التاريخية والمنهجية السوسيولوجية (الاجتماعية) والمنهجية الألسنية، فالمرور او الانتقال إلى الظاهرة الاسلامية يتم على صعيدين هما: الدولة والمؤسسات من جهة، والانجازات العقائدية والثقافية والفردية والجماعية من جهة ثانية.

إذن فالظاهرة القرآنية هي "ظهور القرآن كحدث في لحظة محددة تماماً من لحظات التاريخ، ثم تشكلت الظاهرة الإسلامية كحدث حاصل بعده" **(أركون، د ت، ص 87)**، أي أن الظاهرة القرآنية مرتبطة باللغة القرآنية، كظاهرة تحصل لأول مرة في التاريخ، ثم تلتها الظاهرة الإسلامية التي شكلت الدولة الإسلامية، ولهذا يكون بعد سياسي وسلطوي نتيجة الفاعلين الاجتماعيين.

وهنا نفهم لماذا ميز اركون بين القرآن وما جاء بعده او بين الظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامية" فالواقع انه يريد ان ينزع القدسية عن الثانية وعن كل منتجاتها التشريعية والفقهية والسياسية ...الخ ويريد ان يقول بأنها من عمل البشر على عكس القرآن، فالدولة الإسلامية المدعوة كذلك (أي الدولة الأموية اولاً، ثم العباسية ثانياً، ثم الفاطمية ثالثاً، ثم السلطنة العثمانية...) كلها أنظمة بشرية لا قداسة لها على الإطلاق، ولكنها عرفت كيف تصادر الدين لكي تخلع المشروعية الدينية عن نفسها "**(أركون، 1996، ص 211)**،

وبناءاً على "هذا فإن التمييز بين الحدث القرآني والحدث الإسلامي يهدف إلى الكشف عن تاريخية كل التحولات والعمليات التي انبثقت تحت تأثير الحدث الإسلامي فالقرآن لا يتعالى على التاريخ والحدث الإسلامي هو حدث تاريخي بشري " **(كيحل، 2011، ص168)**.

ومن وجهة نظر اركون فإن الحدث القرآني والحدث الإسلامي لا يتطابقان كما يتوهم جمهور المسلمين "فالأول (أي الحدث القرآني) يدل على الانبثاق التاريخي لظاهرة جديدة، ظاهرة محصورة تماما في الزمان والمكان، ولكن لا يمكن اختزالها إلى مجرد النصوص التي وصلتنا منذ أن كانت قد

تشكلت رسمياً وإنما هي تتطلب استراتيجية جديدة في التحليل واتخاذ الكثير من الاحتياطات الابستمولوجية ... وأما الثانية (أي
الحدث الإسلامي) فلا يتفرع عن الأول بشكل كلي كما يتوهم جمهور المسلمين، او كما يعتقد التراث التبجيلي السائد، فهذا التراث لا يهتم إطلاقاً بالنقد التاريخي" **(أركون، 2001، ص 12)**، ولهذا فإن التراث التبجيلي او النظرة السائدة والموروثة جعلت "ملايين المسلمين يحملون صورة غير دقيقة أو ذاتية جداً او تبجيلية عما حصل، أي عن المرحلة القرآنية والمراحل التي تلتها) "**أركون، 2001، ص 12)**،

وعليه يمكن القول ان "الظاهرة الإسلامية تهتم بالجانب التقديسي من الظاهرة القرآنية لكي تستغله، من اجل خلع التقديس والروحانية والتعالي والأنطولوجيا والأسطرة والأدلجة على كل الترتيبات العقائدية... إن الظاهرة الإسلامية مثلها مثل الظاهرة المسيحية، او اليهودية، او البوذية، لا يمكن فصلها عن ممارسة السلطة السياسية، نقصد بذلك ان الدولة في كل أشكالها التاريخية، تحاول أم تستغل البعد الروحي المرتبط بالظاهرة القرآنية لصالحها" **(أركون، 1996، ص211)**، ولهذا فإن دور الظاهرة الإسلامية يبرز من خلال القانون الوضعي.

أما الظاهرة القرآنية فيُختزل دورها في خلع التقديس على الاحكام الفقهية التي لحقت بالظاهرة الإسلامية حيث يقول اركون "إن بلورة القانون الإسلامي وممارسته ينبغي أن تُلحق بالظاهرة الإسلامية، وخاصة في جانبه المطبق كقانون وضعي (أي فقه) وأما دور الظاهرة القرآنية هنا يُختزل في الواقع إلى مجرد خلع تقديس بل وحتى التأليه على كتب هذه الأحكام الفقهية التي اصبحت تدريجياً القانون الديني أو الشريعة" **(أركون، 1996، ص211)**، أي أنه يتم استغلال الظاهرة الإسلامية في امور دنيوية تستمد قداستها من اشخاص يدعون انهم يملكون الفقه ويحثون على ممارسة السلطة وفق منظور إسلامي.

وعموما يمكن القول بأن كلتا الظاهرتين هما أحد مستويات وتجليات الإسلام، إلا أن الظاهرة الإسلامية ليست إلا تجسيداً تاريخياً محسوساً للظاهرة القرآنية أي تجسيد القرآن ضمن دولة إسلامية معتمدةً عليه كأرضية صلبة في سن قوانينها وأحكامها.

3القرآن من الخطاب الشفوي إلى النص المكتوب.

يُعنى الفكر الأركوني بمهمة النقد التاريخي للنص القرآني، أي دراسة نقدية لتاريخ تشكل القرآن في مرحلة جمعه وتدوينه وتثبيته، لأن الأرثوذكسية في نظر اركون نزعوا صفة التاريخية عن الوحي، فأراد اركون بذلك أن يدرس مراحل تشكل الوحي دراسة تاريخية نقدية وفق ما تمليه عليه المناهج الحديثة.

3-1النقل من الخطاب الشفهي إلى النص المكتوب: قبل أن نستعرض عملية نقل القرآن من الخطاب الشفوي الى النص المكتوب، ارتأينا ان نبين مفهوم الخطاب لغتاً واصطلاحاً، لأنه يشكل أحد المفاهيم الاساسية في فكر أركون عموماً.

-مفهوم الخطاب لغتاً: في اللغة العربية وردت طلمة الخطاب في معجم لسان العرب لابن منظور بمعنى الكلام "الخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخِطابا، وهما يتخاطبان، والخطبة مصدر الخطيب وخطب الخاطب خِطبة" **(ابن منظور، د ت، ص 361)**، أي ان الخطاب في مضمونه هو الكلام.

-اصطلاحاً :يختلف مفهوم الخطاب عن مفهوم النص،" لأنه عندما نتحدث عن أي فكر فإننا نقصد أساسا مجموعة النصوص، والنص هو رسالة من الكاتب الى القارئ فهو خطاب، والكاتب يريد أن يقدم فكرة أو وجهة نظر معينة فهذا خطاب" **(الجابري، 1999، ص ص 10-11)**، والخطاب باعتباره مقول الكاتب أو أقاويله بتعبير الفلاسفة القدامى هو بناء من الأفكار يحمل وجهة نظر معينة.

يرى أركون أن القرآن في البداية كان عبارة عن مجموعة من العبارات الشفوية، ثم دُونت بعد وفاة النبي ﷺ، في ظروف تاريخية لم تُوضح حتى الأن ولم يُكشف عليها النِقاب،" وهذا الظرف العام لا يمكن ان نتوصل إليه إطلاقاً لأننا لا نملك شريط تسجيل أو فيلماً مصوراً يبين لنا الرسول وهو يتحدث إلى أصحابه أو يتلو عليهم القرآن لأول مرة، هذا شيء مضى وانقضى ولا حيلة لنا به" **(أركون، د ت، ص 188)**، ويضيف أركون قائلاً "كما أننا لم نشهد تلك النقاشات الحامية التي دارت حول تثبيت النسخة الرسمية من المصحف، ولا نعرف عنها إلا ما قاله لنا التراث المرسخ بعد ان انتصر من انتصر وانهزم من انهزم "**(أركون، د ت، ص ص 188-189)**،

ونجد ان اركون يميز بين الخطاب الشفهي والنص المكتوب، "فالخطاب الشفهي تلفظ به النبي طيلة عشرين سنة في ظروف متغيرة ومختلفة وأمام جمهور محدد من البشر" **(أركون، د ت، ص 186)**، ومعنى هذا أن الحطاب الشفهي هو مجموع الآيات او العبارات التي تلفظ بها النبي ﷺ" بلغة ما هي هنا اللغة العربية، في بيئة ما هي الجزيرة العربية، ثم استقبله لأول مرة في التاريخ جمهور ما هو الجمهور القرشي في مكة واتخذوا منه مواقف شتى كما هو معروف منها رفض ومنها قبول".**(أركون، د ت، ص ص 186-187)**، اما مرحلة التدوين أو النص المكتوب فجاءت بعد وفاة النبي ﷺ، وبالضبط في عهد الخليفة عثمان بن عفان أي مرحلة جمع القرآن الكريم في مصحف واحد، وهو ما يسميه اركون بالمدونة الرسمية المغلقة والناجزة.

وبناءاً على هذا فإن اركون يحاول دراسة القرآن في لحظاته الشفهية والمكتوبة؛ لن بينهما مدة زمنية فاصلة من شأنها أن تضيع أشياء في الطريق، ولهذا يقول اركون" إن الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة المدونة الرسمية المغلقة (أي مرحلة المصحف) لم يتم إلا بعد حصول الكثير من عمليات الحذف والانتخاب والتلاعبات اللغوية التي تحصل دائماً في مثل هذه الحالات، فليس كل الخطاب الشفهي يُدون وإنما هناك أشياء تُفتقد أثناء الطريق, نقول ذلك ونحن نعلم أن بعض المخطوطات قد أُتلفت كمصحف ابن مسعود مثلاً ، وذلك لأن عملية الجمع تمت في ظروف حامية من الصراع السياس على السلطة والمشروعية" **(أركون، د ت، ص 187)**، ومعنى هذا أن اركون يركز على الفاصل الزمني بين الرسول ﷺ وبين عثمان ابن عفان، فالأول يمثل الخطاب الشفهي، أما الثاني فيمثل التدخل البشري في تشكيل القرآن او المصحف، " فانتقال الوحي من القرآن إلى المصحف، هو أول حدث يثبت التدخل البشري في تغيير الوحي المعطى" **(الفجاري، 2005، ص 118)**، وهذا ما يُولد الشك لدى أركون، لأن التدخل البشري في مُعطى إلهي من شأنه خلق تلاعبات لغوية ودلالية تجعل من المصحف كلام بشري منسوب إلى الله, وليس كلام إلهي مقدس وذلك راجع إلى التقلبات السياسية التي كانت في عهد الخليفة عثمان ابن عفان حول مصير الخلافة، فالخلافات السياسية تؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في عملية جمع القرآن، ولهذا فإن النقاشات السياسية المحتدمة بين المسلمين "دفعت الخليفة عثمان إلى جمع كلي للتنزيل في مدونة واحدة تدعى المصحف. وأعلن أن الجمع قد انتهى، وأن النص الذي أُثبتَ لا يناله التغيير. وأُتلفت المدوّنات الجزئية، لكيلا تؤجج الخلافات حول صحة التبليغ المحفوظ، وهذا ما يبرر مفهوم المدونة الرسمية المغلقة " **(أركون، 1996، ص61)**، وهذا التحول حسب اركون من الخطاب الشفهي إلى النص المكتوب، يتكفل به عالم الألسنيات الحديثة لأنها مبنية على "التمييز الذي تقيمه الألسنيات بين النص الشفهي والنص ذاته بعد أن يصبح مكتوباً، فهناك أشياء تتحور أثناء الانتقال من المرحلة الشفهية إلى المرحلة الكتابة" **(أركون، 1996، ص53)**، ويضيف اركون قائلاً "إن تحديد المكانة المعرفية للمعنى اللغوي والتاريخي للخطاب الشفهي، والتمييز بينهما وبين المكانة المعرفية للخطاب المدون أو المكتوب، وهذا شيء يعرفه علماء الألسنيات بشكل خاص عندما يتحدثون عن الظرف العام الذي قيل فيه الخطاب الشفهي لأول مرة" **(أركون، د ت، ص188)**، وهذا ما يجعل اركون يعتقد جازماً بأن القرآن الذي بين أيدينا اليوم قد تعرض لكثير من التنكر والتنقيع والحذف والتلاعبات، مما يجعل المطابقة بين الخطاب الشفهي والنص المكتوب غير واردة نظراً لغياب معرفتنا لحيثيات الخطاب الشفهي الذي تلفظ به النبي ﷺ، وكذا الظروف التي تم فيها جمع المصحف الشريف في عهد عثمان ابن عفان "لأننا لا نملك شريط تسجيل أو فيلماً مصوراً يبين لنا الرسول وهو يتحدث إلى أصحابه أو يتلو عليهم القرآن لأول مرة فهذا شيء مضى وانقضى

ولا حيلة لنا به، ففي ذلك الوقت لم تكن هناك آلات تسجيل ولا كاميرات تصوير"(**أركون، د ت، ص188**)، وانطلاقاً مما سبق نجد أن الرواية الرسمية لانتقال القرآن من المرحلة الشفهية إلى المرحلة المكتوبة يعرض نفسه من خلال خطاب شفاف ومثالي يمحو فيه كل المناقشات، وكل الصراعات وكل الرهانات المتعلقة بالتسلسل التاريخي لحدوث هذه العملية، بحيث يؤدي هذا إلى فرض دونة رسمية لا يُسمح لأحد بأن يوجه إليها أدنى ذرة شك، مما جعل مضمون الرسالة بمنأى عن كل ضياع أو ارتياب أو احتجاج.

وبهذا رُسخ المصحف على هيئة مدونة رسمية مغلقة، مدونة أي أنه مجموعة من العبارات الشفهية اللغوية التي جُمعت لكي تُشكل المصحف، اما رسمية فتعني انها في يد السلطة أي في يد الخليفة عثمان ابن عفان وتحت سيطرته، وأما مغلقة فلأنه لم يعد يحق لأي شخص مهما كان أن يضيف أو يحذف لها أي شيء.

وبالتالي إن الفهم التقليدي للقرآن حسم أمره في اعتبار القرآن مدونة رسمية مطابقة للخطاب القرآني الشفهي وأصر على مكانتها باعتبارها كلام الله الموحى به إلى محمد ﷺ، وبذلك هو آخر تجلي لله في التاريخ باعتبار أن الدين الإسلامي هو آخر الأديان السماوية.

ومن هنا تتبين المهمة التي تتطلبها أية مراجعة تاريخية نقدية لتاريخية النص القرآني، وهي إعادة كتابة قصة تشكل هذا النص بشكل جديد كلياً، أي نقد القصة الرسمية لتشكيل المصحف التي رسخها التراث المنقول، وهذا يؤدي بنا إلى الرجوع إلى الوثائق التاريخية التي أُتيح لها أن تصلنا سواء كانت ذات أصل سني أم لا.

ولكن مسألة إعادة النظر في قضية تدوين القرآن وترتيبه تمتنع لسببين اثنين هما: السبب السياسي والسبب النفسي.

أما من السبب السياسي "فنجد أن القرآن يؤدي بالنسبة إلى الدولة الجديدة الناشئة بعد الاستعمار دور ذروة المشروعية أو الشرعية الضرورية بالنسبة إليها. نقول ذلك وخصوصاً ان آليات الشرعية الديمقراطية غائبة عنها أو منها تماماً... وأما من الناحية النفسية فنجد ان الوعي الإسلامي كان قد تمثل وهُضم منذ فشل المدرسة المعتزلية بخصوص القرآن المخلوق ذلك الاعتقاد اليقيني الذي يقول إن كل الصفحات الموجودة بين دفتي المصحف تحتوي كلام الله بالذات، وهم بذلك يطابقون بين القرآن المكتوب والقرآن الشفوي" **(الفجاري، 2005، ص 119)**، وعليه فإن هذا التمييز بين الحطاب الشفوي والنص المكتوب هي عملية منهجية تفتح الباب على إمكانية نقد تاريخ القرآن وإعادة تدوينه وترتيبه وهلهلت كل المقدسات والقيم المتعالية بالنسبة للمصحف التي

تعتبر أن النص المكتوب شكلاً مادياً للوحي، وهذا ينجر عليه حسب اركون نتائج ذات أهمية تتمثل فيما يلي:

اولاً: "وضع شعوب الكتاب المقدس في حالة تأويلية دائرية، بمعنى أنه جعلها مضطرة لأن تقرأ النصوص المقدسة من أجل استخراج القانون منها، ثم من أجل استخراج الأوامر وأنظمة الإيمان ولاإيمان التي سيطرت على النظام الأخلاقي والتشريعي والسياسي حتى مجيئ العلمنة وانتصارها" **(أركون، 1996، ص78)**، أي أن النصوص المقدسة هي مصدر التشريع السياسي والقانوني عن المسلمين.

ثانياً: " راح هذا الحلول يُعمِّم الكتاب المقدس ويضعه في متناول الجميع وخصوصاً بعد اختراع الورق اولاً ثم المطبعة ثانياً، فالكتاب المطبوع بصفته آداه للثقافة وناقلاً للحضارة يساعد على انتشار الكتاب المقدس المتضمن للوحي والكتب الأخرى المتفرعة عنه (كتب التفسير واللاهوت والقانون والعقائد الإيمانية والتعاليم الإيمانية والترجمات...الخ "**(أركون، 1996، ص78)**،

2-3 التمايز بين الخطاب الشفهي والنص المكتوب: إن تدوين المدونة الرسمية المغلقة (المصحف) وضعنا أمام مشكلة ضخمة وهي ظروف وملابسات الكلام الشفهي قبل أن يصبح نصاً مكتوباً، وهذا ما دفع أركون إلى التميز بين القرآن في حالته الشفهية والقرآن في حالته المكتوبة، وهذا التمييز ليس ذو أهمية ألسنية فقط، وإنما ذا أهمية انثروبولوجية أيضاً، ولهذا فإن ممارسة الذاكرة والعقل في المجتمعات الشفهية ليست نفسها في المجتمعات التي لا تعرف الكتابة.

كما أن التمييز بين المكانتين اللغويتين للخطاب الشفهي والنص المكتوب، فالخطاب الشفهي له بروتوكوله الخاص في التواصل أو التوصيل من خلال علامات سيميائية وقناة خاصة في ظروف معينة، وآليات لاستخدام واستخراج المعنى لتتخذ بذلك ردود أفعال بالقبول أو الرفض، أي أن التأثير الشفهي يكون اقوى من الكتابي لأن شخصية النبي ﷺ لحظة تلفظه بالقرآن الكريم تلعب دوراً كبيرا في التأثير على جمهور المتلقين، اما المدونة الرسمية المغلقة (المصحف) ففهمها وتأويلها يقتصر على فئة معينة تمتاز بالقدرة على القراءة والكتابة من جهة، ومن جهة اخرى فئة المفسرين والفقهاء الذين يشكلون المتخيل للفاعلين الاجتماعيين.

وهذا يدل على أن الانتقال من الخطاب الشفهي إلى النص المكتوب تُمكن من اتساع دائرة التأويل وفق ما يتناسب مع وجهة نظر كل مفسر ومؤول، أي يصبح باب التأويل مفتوحاً على مصرعيه لكلٍ تأويله الخاص، كما انتشر المصحف الكريم بفضل ظهور الكتابة واختراع المطبعة أدى هذا إلى تسليم الكلام القرآني للالتباسات التاريخية.

وانطلاقاً من هذا يُقدم لنا أكون رسماً بيانياً يوضح فيه كيفية تشكل الوحي المكتوب:

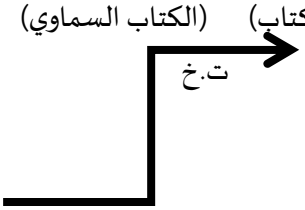

(أركون، 1996، ص85)،

إن هذه الرموز والمصطلحات التي يستعملها اركون صعبة ودقيقة وبحاجة إلى توضيح.

"ك _ ل = كلام الله

خ _ ق = خطاب قرآني شفهي

م _ ن _ ر _ م = المدونة الرسمية المغلقة (أو المصحف)

م _ ن _ ت = مدونة نصية تفسيرية (تفاسير القرآن)

أ _ م = الأمة المفسرة (أمة المسلمين التي تفسر القرآن جيلاً بعد)

ت _ أ = تاريخ أرضي (الدنيا في اللغة الإسلامية الكلاسيكية)

ت _ خ = تاريخ الخلاص (انواع الوحي المتتالية والمنظور الأُخروي)" **(أركون، 1996، ص85)**،

ويُعلق اركون على الرسم البياني فيقول" بعد أن يراقب القارئ الجدول البياني يلاحظ أننا قد وضعنا الحركة التي يوحي الله بواسطتها جزءاً من الكتاب السماوي إلى البشر على المستوى العمودي، وهذا دليل على رمزية النزول أو التنزيل أقصد نزول الوحي من فوق إلى تحت ثم عودة الصعود نحو التعالي، أما على المستوى الأفقي فقد موضعنا التاريخ الأرضي أي العمليات البشرية التي تنطلق من الخطاب القرآني لكي تؤدي إلى المدونة الرسمية المغلقة والنهائية" ويضيف اركون قائلاً" ثم ننطلق من المدونة النصية الرسمية المغلقة (أي المصحف) إلى المدونة النصية التفسيرية، أي التفاسير العديدة جداً التي تعرض لها المصحف والتي كتبها المفسرون الأكثر تنوعاً واختلافاً من اجل ايضاح حقائق الوحي التي تنير سلوك البشر وأعمالهم طوال مسار التاريخ الأرضي في هذا العالم" **(أركون، 1996، ص ص85-86)**، وبهذا المعنى يعود الإنسان من جديد إلى الله طبقاً للخطة الموضحة في القرآن أي يتعرض إلى الحساب في اليوم الأخر.

ولهذا يرى اركون بأن المرحلة الشفاهية تمثل المرحلة الخِصبة والطازجة التي ضاعت إلى الأبد ولا يمكن التوصل إليها، ولهذا يقول" ونحن لا يمكن أن نتوصل إلى معرفة هذه الحالة الأولية والطازجة للخطاب مهما حاولنا، فقد انتهت بوفاة اصحابها، لقد ضاعت للأبد"**(أركون، د ت، ص187)**،

كما أن الخطاب الشفهي يفتح تأويلات كثيرة، بما أنه مسموع من قبل صحابة النبي ﷺ فلكل سامع وجهة نظر، أما المدونة الرسمية المغلقة (المصحف) فهي لا تقبل أي إضافة أو حذف لأنها منتهية تحتوي على كلام منزه بمثابة أوامر ونواهي.

وعموما يكم القول بأن القرآن في انتقاله من الخطاب الشفهي إلى النص المكتوب يفتح أظابير جديدة ونقاشات حادة من شأنها أن تعيد فهم جديد للقرآن، انطلاقاً من اننا لم نعش تلك اللحظة وتلك النقاشات في عهد الرسول ﷺ.

4مفهوم الأنسنة.

كثيراً ما نجد محمد أركون يُلح ويدعو إلى أنسنة النص الديني في مواضع عديدة من مشروعه العام نقد العقل الإسلامي، وربما خير دليل على ذلك هو تحليله لأعمال كل من ابو حيان التوحيدي ومسكويه في كتاب موسوم ب "نزعة الأنسنة في الفكر العربي" فهو بذلك يريد رفع التعالي والتقديس المبالغ فيه عن النص الديني وجعله في مستوى الإناسة أي جعله نص بشري.

"إن مصطلحات النزعة الإنسانية والأنسنة والإنسانوية، تأتي في اللغة العربية كترجمات للمصطلح الفرنسي""Humanisme ، والذي يُشتق في اللغة اللاتينية وتحديد من كلمة ""Humaniste والتي تعني في اللاتينية تعهُد الإنسان لنفسه بالعلوم الليبرالية التي بها يكون جلاء حقيقته كإنسان متميز عن سائر الحيوانات" **(الحنيفي، 1986، ص71)** أما في اوروبا فقد ارتبط ظهور الأنسنة والمذهب الإنساني، بحركة الاصلاح الديني وعصر النهضة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ميلادي، حيث شهدت هذه الفترة نقلة نوعية من المجال الديني إلى المجال العلمي المبني على العقل الانساني بعيداً عن أحكام الدين، أي من الله إلى الإنسان او من الحاضر إلى المستقبل، واقترن هذا الاصلاح بأعمال مارتن لوث (1483_1546) "M.Lather"في القرن السادس عشر ميلادي، حيث ركز لوثر على "الاعتراف بدور العقل ومكانته في البحث الحر وزعزعة الاستاذية العقائية التي كانت تمارسها الكنيسة دون الخروج النهائي عن الإطار الانطولوجي العام للوحي، وفي هذا السياق بدأ فكرة التوسط بين الله والإنسان وجعل علاقة الإنسان بالله مباشرة، كما رفض احتكار تفسير الكتاب المقدس وإعلان حرية الإيمان" **(كيحل، 2011، ص56)**، وعليه فإن النزعة الإنسانية في أوروبا في عصر النهضة يمكن تعريفها بشكل عام على أنها الثقافة التي ميزت إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر والتي نقلت إنجازاتها الفريدة بعد ذلك إلى كافة سرايا أوروبا، وهي تتمثل في دراسة الأدب الإغريقي واللاتيني بوصفها نمطاً مثالياً من التربية والحضارة، إن الموقف الفكري المركزي للنزعة الإنسانية هو الرجوع إلى أصالة نصوص القدامى" **(كيحل، 2011، ص56)**، هذا فيما يخص نزعة الأنسنة في الفكر الغربي.

أما فيما يخص نزعة الأنسنة في الفكر العربي، فإن مفهومها مرتبط بالنص القرآني، ونجد هذا المصطلح (الأنسنة) مبثوث بشكل كبير في فكر المفكر محمد اركون، حيث يبين مفهوم الأنسنة بقوله" ويمكن القول بأن كلمة (Humanitas) اللاتينية تماثل من حيث المعنى أو تطابق كلمة أدب بالمعنى (الكلاسيكي للكلمة وليس بالمعنى الضيق المحدث) فهذه الكلمة تعني ما يلي: وجود ثقافة كاملة او متكاملة لا يعتريها النقص أي تلم بكل شيء، إنها ثقافة تتميز فالأناقة الأخلاقية المرهفة، والزي الحسن اللياقة المرهفة والفهم العالي للعلاقات الاجتماعية، باختصار فإنها تتميز بمراسم صارمة ودقيقة في العادات والسلوك، وهي مراسيم تهدف إلى توفير الخير لكل الجماعة عن طريق تنمية الإمكانيات الجسدية والمعنوية والثقافية للفرد ومساعدتها على التفتح والازدهار "**(أركون، 1998، ص 608).**

وبناءاً على هذا فإن العقلانية تمثل جوهر الأنسنة، فالعقل هو بمثابة السلطة المرجعية والمعرفية في إدراك العالم، لان العقل هو الذي يُخلص الإنسان من المرجعيات الدينية وبهذا يُصبح الإنسان مصدر المعرفة ومرجعها الأول بدل النص الديني المقدس، أي جعل الإنسان يرتقي بعقله نحو السيطرة على الموجودات والطبيعة ككل، لا كما هو وارد في النصوص الدينية التي تجعل من الإنسان آلة في يد كلام مقدس يتصرف فيه البشر وفق قراءات وتأويلات من شأنها أن تُغير النظر للدين والمعتقد، وتثير شكوك من تجعل الإنسان في ريب وشك من صحة هذا الدين أو ذاك.

وبالتالي فإن مفهوم الأنسنة عند محمد أركون ارتبط بأعماله، خاصة اطروحته المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه تحت عنوان " "L'humanisme arabe au IYX siacl: وترجمها إلى اللغة العربية معربه هاشم صالح تحت عنوان : "نزعة الأنسنة في الفكر العربي : مسكويه و وأبو حيان التوحيدي" ويوضح اركون أن النزعة الإنسانية الكلاسيكية في التراث الإسلامي بالتحديد في القرن الرابع هجري (العشر ميلادي) "كان قد شهد النزعة الإنسانية نظرياً وعملياً، واتخذت لديه من الناحية الأسلوبية صيغة الأدب، بالمعنى الواسع للكلمة وليس بالمعنى الجمالي أو الفني الضيق، وقد إغتنى الأدب بالعناصر والمعطيات الفلسفية... بمعنى ان كتب الأدب الكلاسيكية كانت تحتوي على البيان الأسلوبي والأفكار الفلسفية في آن معاً" **(أركون، 1998، ص 14).**

ويصيف أركون قائلا:"ولكن بعد زوال كتب الأدب والفلسفة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة والدخول في عصر الانحطاط اختفت النزعة الإنسانية أو الفلسفة العقلية من الساحة" **(أركون، 1998، ص 14).**

وهذا يوضح أن النزعة الإنسانية عند لدى العرب سابقة عن النزعة الإنسانية عند الغرب والتي كانت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ميلادي.

وانطلاقاً من هذا يري أكون أن النزعة الإنسانية العربية الإسلامية في العصر الكلاسيكي تتميز بجملة من الخصائص هي:

-"انفتاحها على العلوم المدعوة بالأجنبية (أو بالدخيلة بحسب اللغة الكلاسيكية للفقهاء المضادين العلوم، وكانوا دائماً موجودين بقوة إلى جانب الخط الإنسي المتفتح على العلوم الأجنبية، وينبغي ألا ننسى ذلك) هذا الانفتاح لم يُحجَّم من قبل أسبقية دوغمائية او لاهوتية، وإنما من قِبل الحاجيات المعاصرة للمجتمع آنذاك" **(أركون، 1998، ص 618)**. ومعنى هذا هو احتكاك علماء الإسلام بكتب الأجانب والاطلاع على ما قدموه من معارف وهذا يوضح دور النزعة الإنسانية لدى المسلمين في العصر الكلاسيكي.

-"حصول عقلنة للظواهر الدينية وشبه الدينية آنذاك، وذلك عن طريق ضبطها ومراقبتها، ب وصل الأمر ببعضهم آنذاك إلى حد إلغاء المعجزة والأشياء الخارقة للطبيعة والشعوذات وذلك من اجل إفساح المجال للتأويل العلمي أو السببي للظواهر" **(أركون، 1998، ص 618)**. وهذا يدل على حلول العقل محل النصوص الدينية وجعلة مركز السلطة في إدراك العالم الطبيعي، وبهذا أصبح الإنسان مصدر المعرفة بفضل العقل.

- "إعطاء الأولوية للاهتمام بالمشاكل الأخلاقية_السياسية" **(أركون، 1998، ص 618)**.

ومعنى هذا إخراج الأخلاق من سلطة الدين كما فعل مسكويه في نظر محمد أركون، أي جعل الأخلاق مصدرها أحكام وضعية من صنع الإنسان وليس أحكام ميتافيزيقية غيبية لا يعلم الإنسان مصدرها ولا صحتها تنبع من سراج بعيد عن الواقع الملموس.

- "حصول تنمية للفضول العلمي وللحس النقدي، الشيء الذي أدى إلى تنظيم جديد للمعرفة" **(أركون، 1998، ص 618)**. ومعنى هذا حوث انقلاب في نظام المعرفة الكلاسيكية، فما كان هامشي أصبح مركزي وما كان مركزي أصبح هامشي.

-" ظهور قيم جمالية جديدة لم تكن معروفة من قبل إلا قليلاً" **(أركون، 1998، ص 618)**، ويقصد بها أركون مختلف الفنون والجماليات كفن العمارة والرسم والموسيقى...الخ.

- "سيطرة غير كافية على عالم الخيال أو المخيال) "**أركون، 1998، ص 618)**.

ولعل من ابرز الشخصيات الفكرية التي مثلت النزعة الإنسية في الإسلام من وجهة نظر أركون هو أبو حيان التوحيدي، بالإضافة إلى ابن سينا الذي يعتبره اركون من ممثلي النزعة الانسية في الإسلام، حيث كانت النزعة الإنسية عند ابن سينا تشتمل على ثلاثة أشياء، "فهي تعترف بالنضال المشروع الذي يقوم به العقل من أجل التوصل إلى استقلاليته الذاتية، وهي هي تعترف بالرمزانية الدينية بصفتها بُعداً روحياً من أجل البحث عن المعنى، وهي تعترف أخيراً بحق الإنسان في مواصلة البحث العلمي القائم على التجريب والعيان وكل هذه الأشياء تشتمل عليها فلسفة ابن سيناء

ونزعته الإنسانية"**(أركون، 1998، ص 20)**، أما في الأنسنة في العصر الحديث فلم يعد لها وجود من وجهة نظر أركون نظراً للسياسة الداخلية والخارجية للدول العربية، لأنها هي التي كبحت النزعة الإنسانية وعجلت بموتها، عندما استعاضت بإيديولوجيا الجهاد، وهي إيديولوجيا دفاعية تُشجع المدارس الدوغمائية" **(كيحل، 2011ن ص64)**، وما يمكن قوله ان الأنسنة تريد أن ترفع التعالي عن الكلام المطلق والمقدس وتجعله في موضع الأنسان أي سقوط تلك الهيبة القدسية التي تجعل منه بعيد عن مستوى الإنسان.

5الكلام المطلق والكلام النسبي.

يتخذ كل من الكلام المطلق والكلام النسبي مفهومين مختلفين، فكلٍ منهما مفهومه الخاص:

5-1مفهوم الكلام المطلق: هو كلام الله في كليته ونهائيته، ويتوضح هذا المفهوم في قول محمد أركون "فكلام الله لا ينفذ ولا يمكن استنفاذه، ونحن لا نعرف كليته، فأنواع الوحي التي أُحيت بالتتالي إلى موسى وأنبياء التوراة، ثم إلى عيسى وأخيراً محمد ليست إلا أجزاء متقطعة من كلامه الكلي، ونظرية. الكتاب السماوي. التي نجهلها ليست إلا رمزاً للقول بأن هناك كتاباً آخر يحتوي على كُليانية كلام الله (أم الكتاب) ... وهو يعني به ذلك الكتاب الذي يحتوي على كلية كلام الله والموجود فقط في السماوات" **(أركون، 1996، ص 82)**، ومعنى هذا ان كلام الله كلي وأزل وشمولي وكامل ولا متناهي، موجود في السماوات، والنموذج المثالي والمتعالي الذي يشتمل كلية كلام الله المجهولة والسرية، التي لا نعلمها ولا يمكن التوصل إليها، وان الكلام المطلق تجسد في إطاره البشري من خلال الرسول ﷺ في لغة هي اللغة العربية.

5-2مفهوم الكلام النسبي: حينما تجسد كلام الله في لغة البشر، اصبح كلام الله بذلك ظاهراً في التاريخ الأرضي للمخلوقات، وعلى حد تعبير أركون فإن الكلام النسبي هو "الكلام المنسوخ باليد على الورق والمجموع في كتاب مجلد يدعى المصحف، أقصد المصحف المعروف الذي أمسكه باليد وأنقله من مكان إلى آخر وأقرأه وأفسره " **(أركون، 1996، ص50)**، ويضيف أركون قائلاً" قلت المصحف ولم اقل القرآن لأنه يدل على الشيء المادي الذي نمسكه بين أيدينا يومياً، ولأنه يقابل التوراة والإنجيل بالضبط فهو كتاب مؤلف من صفحات سُجل فيها الخطاب القرآني بالخط المعروف، وقد كُرِست هذه النصوص طبقاً لمجريات مبلورة ومضبوطة من قِبل السلطات العقائدية ثم رُسِخت على هيئة مدونة رسمية مغلقة"**(أركون، 1996، ص77)** ،ومعنى الكلام النسبي هو كلام البشر المُعرض للخطأ وغير الثابت ويعتريه النقص لأنه من صُنع البشر غير المنزهين.

3-5التمييز بين الكلام المطلق والكلام النسبي :وتعود جذور فكرة التمييز بين الكلام المطلق والكلام النسبي إلى فرقة المعتزلة التي قالت بمسألة خلق القرآن، فالقول بأن القرآن مخلوق ليس مجرد كلام وإنما يعني إدخال بُعد الثقافة واللغة في طرح المشكلة، وهما من صنع البشر لا من صنع الله، إنه يعني إدخالهما وأخذهما بعين الاعتبار فيما يتعلق بالجهد المبذول لاستملاك الرسالة الموحى بها. وذلك يعني أيضاً الاعتراف بمسؤولية العقل ومساهمته في جهد الاستهلاك هذا أي أن القرآن ليس من صفات الذات الإلهية، وإنما هو من صفات فعل الله لأن صفات الوجود تتعلق بحدوث العالم أي ان الله حادث وحاصل وليس قديم وأزلي.

وأركون في دراسته للوحي يربطه بالعالم الأرضي أي نزع القداسة عنه ولهذا نجده يدرس الوحي دراسة علمية من خلال تطبيق المقاربة الألسنية عليه أي دراسة التركيبة اللغوية والاجتماعية وفي هذا يقول أركون "فما كان قد قُبل وعُلم وفُسر وعُيش عليه بصفته الوحي في السياقات اليهودية والمسيحية والإسلامية ينبغي أن يُدرس أو يُقارب منهجياً بصفته تركيبة اجتماعية لغوية مدعمة من قبل العصبيات التاريخية المشتركة والاحساس بالانتماء القومي إلى تاريخ النجاة المشترك لدى الجميع" **(أركون، 2001، ص21)**، ولهذا يدعو أكون إلى ضرورة توظيف علو اللسانيات أو علم اللغة، لأن الخطاب القرآني لم يكن مكتوباً في البداية، وإنما كان عبارة عن كلام شفهي أو عبارات شفهية تصدر على ضوء المناسبات والظروف المتغيرة، فالخطاب القرآني الصادر عن الله قد ضاع بعد وفاة الرسول ﷺ، والخطاب الذي بَلَّغه الرسول صلى الله عيه وسلم إلى الصحابة هو الذي يشكل المصحف المعروف، ولهذا فإن هذين النمطين من الاستخدام الشفهي يختلفان لغوياً عن المرة الشفهية الأولى حين نطق محمد بن عبد الله بالآيات القرآنية أو بالمقاطع والسور على هيئة سلسلة متتابعة أو وحدات متمايزة ومنفصلة على مدار عشرين عاماً" **(أركون، 2001، ص38)** أي أن الكلام المطلق الإلهي في أوليتيه كان مطلق، ولكن بعد احتكاكه بالبشر ولغتهم أصبح كلام نسبي.

7مجتمعات الكتاب المقدس ومجتمعات الكتاب العادي.

يميز أركون بين المصطلحات فنجده يميز بين مفهومين هما: مجتمعات أم الكتاب والكتاب، فأم الكتاب (أهل الكتاب) يحِل مكانه مجتمع الكتاب عند أركون أو ما يسميه بالكتاب العادي، ويهدف من خلال هذا التمييز إلى تبيان امفهوم اللاهوتي للكتاب (بمعنى الكتابات المقدسة) ... نقصد بهذه الكلمة الأخيرة ذلك الشيء المادي الذي نلمسه باليد ونتداوله بين أيدينا للمطالعة، ومن المعلوم أنه هو الذي تستولي عليه السلطة السياسية المتمثلة بنظام الدولة، وإما بجماعة رجال الدين الذين يقعون في خدمتها **(أركون، 1990، ص57)**.

وبحسب أركون فإن الاديان لا يمكن ان تتعرف على المفهوم اللاهوتي لمجتمعات أم الكتاب إلا من خلال العودة إلى الكتاب المادي الملموس، لأنه من الواضح ان الطوائف الثلاث من يهودية ومسيحية وإسلامية مضطرة لاستخدام الكتاب (بالمعنى الصغير المتعارف عليه) من اجل التوصل إلى مضامين الكتاب المقدس المحفوظ عند الله في السماء (اللوح المحفوظ بحسب القرآن، أو أم الكتاب). إنها مضطرة إلى استخدام الكتاب بالمعنى المحسوس والعادي للكلمة من أجل نشر نظرياته" **(أركون، 2001، ص21)**،

وبناءاً على هذا فإن أركون قام بنحته لمصطلح أم الكتاب/الكتاب، كان يهدف إلى تحقيق هدفين محررين للروح والعقل هما:

- "زحزحة التحليل من الأرضية اللاهوتية والجِدالية غالباً لما يدعوه القرآن (بأهل الكتاب) إلى الرضية الأرحب والأوسع لمجتمعات الكتاب لماذا هذه الزحزحة؟ وماذا تفيدنا؟ إنها تفيدنا في نقل المناقشة من الأرضية اللاهوتية العتيقة إلى الأرضية الأكثر محسوسية الأكثر شمولية للمعرفة التاريخية والأنثروبولوجية "**(أركون، 2001، ص20)**

ويضيف أركون قائلاً "فمصطلح الكتاب يضم كل أديان الكتاب بما فيها الإسلام نفسه (بالإضافة إلى اليهودية والمسيحية) وبالتالي فيفقد الصفة السليبة التي كان ينطوي عليها مصطلح أهل الكتاب" **(أركون، 2001، ص20)**، ومعنى هذا أن مصطلح اهل الكتاب يحمل شحنات سلبية، فهو ينطوي على معرفة لاهوتية مغلقة بعيدة عن المعرفة التاريخية والأنثربولوجية، أما مصطلح مجتمعات فهو أكثر تفتحاً بحيث يضم جميع الديانات.

- "فإن ذلك يُتيح لنا ان نفرض إشكالية ألسنية وأنثروبولوجية للوحي، وهي إشكالية تشمل كما قلنا الأديان الثلاثة الموصوفة بأديان الوحي، بمعنى أننا ندرس الوحي كظاهرة لغوية لأنه مكتوب بحروف لغة بشرية، وبالتالي فتنطيق عليه قوانين التفسير والتأويل اللغوي التي تنطبق على النصوص الأخرى مع الاخذ بعين الاعتبار خصوصية الخطاب الديني، ثم دراسته كظاهرة أنثروبولوجية بمعنى انتشاره في المجتمعات البشرية الأكثر تنوعاً " **(أركون، 2001، ص20)**، ومعنى هذا أن أركون يريد استكشاف الجوانب اللغوية والاجتماعية لظاهرة الشمولية في الكتاب المقدس التي تتعالى وتتسامى .

ويميز أركون بين الكتاب المقدس والكتاب العادي من خلال كيفية تشكل الأناجيل في المسيحية حيث يقول" إن هذا التمفصل الوظائفي أو العملي بين الكتاب (بالمعنى العادي للكلمة) وبين الكتاب (بالمعنى المقدس للكلمة) واضح جداً فيما يخص كيفية تشكل الأناجيل في المسيحية، فمن المعروف أن كَتَبَة الأناجيل قد اختاروا الإغريقية كلغة كتابة بدلاً من الآرامية على الرغم من أن

هذه الأخيرة هي لغة المسيح. لماذا؟ لأن الإغريقية كانت أقوى ثقافياً وأكثر انتشاراً، ولأن لغة المسيح الناصري كانت عبارة عن لهجة متواضعة من لهجات اللغة السامية التي لا يمكن مقارنة رأسمالها من حيث عدد الكتب بالرأسمال الذي تتمتع به الإغريقية آنذاك"**أركون، 1990، ص58).**

وبناءاً على ما سبق نجد أركون يُفسر العلاقة بين أم الكتاب والكتاب العادي، انطلاقا من معطيات أنثروبولوجية وذلك من خلال استحضار خاصية الصراع بين العقل الشفهي والعقل الكتابي، وفي هذا يقول أركون " العقل الشفهي المعتمد على الثقافات غير المكتوبة، أي ثقافات الفئات الاجتماعية المتمثلة بسكان الأرياف والجبال والرعاة المتبعثرين سياسياً، وبين العقل الكتابي الذي تحدث عنه عالم الانثروبولوجيا جالك غودي، فمن المعروف أن العقل الكتابي هو الذي يفرض على المجتمع مقولاته وتحديداته وتقسيماته ونظام حقائقه بواسطة ذلك التضامن الوظائفي الشغال والفعال بين أربع قوى وينتهي به الأمر إلى الهيمنة على الساحة الاجتماعية (أي على كل مجتمع) وهذه القوى هي الدولة والكتابة، والثقافة العالمة، والأرثوذكسية الدينية" **(أركون، 1990، ص ص 58-59)** ومعنى هذا أن التضامن التحالف بين هذه القوى الأربعة يحقق الانتقال من مرحلة الكتاب بالمعنى التيولوجي إلى مرحلة المدونة الرسمية المغلقة (المصحف) . وخلاصة القول ان الأنسنة هي التعاطي مع النص الديني كنص تاريخي أي أنه متجسد في لغة بشريةيخضع لملابسات تاريخية، لأنه يعكس بذلك التصورات والمفاهيم التي تتضمنها اللغة البشرية في جميع الأديان، لأن كلام الله يمر إلى البشر ثم يُستخلص في كتاب تلتف حوله كل الفئات الجتماعية تُدعى أم الكتاب.

وما يمكن استخلاصه من تاريخية النص الديني عند محمد أركون، أن النص الديني ما هو إلا نص تاريخي تعرض لملابسات وإضافات عبر تاريخ تشكله، حيث لعِب الفاعلين الاجتماعين دوراً كبيراً في إصباغه بصبغة القداسة من خلال تدخل العنصر البشري في مُعطى إلاهي واحتكار كلام الله لدى فئة معينة دون سواها .

الخلاصة:

وصفوة القول إن محمد أركون أراد تطبيق ما تلاقاه من مناهج غربية خلال تعليمه في الجامعات الأوروبية وخاصة فرنسا (جامعة السوربون)، فمشروعه نقد العقل الإسلامي هو رؤية حداثية ترتكز على مناهج غربية المنشأ، فأركون رأى أن العقل الإسلامي مزال يتكئ على تراث لا نعرف عنه سوى ما وصل إلينا عبر أشخاص إكتسبوا قدسيتهم من قدسية النص الديني في حد ذاته، وعلى هذا الأساس ميز أركون بين الظاهرة الدينية والظاهرة الإسلامية لفك اللبس بينما هو من السماء وبين ما هو نتاج الفاعلين الإجتماعيين، وكذا محاولة المقارنة بين القرآن في لحظاته الشفاهية في زمن الرسول ﷺ ولحظاته المكتوبة في عهد عثمان ابن عفان ﷺ، وذلك بهدف إظهار المدة الزمنية

التي ربما حسبه يضيع فيها الكثير، وأيضا محولته أنسنة النص الديني وجعله نص بشري قابل للنقد، فالرجل حاول محاولة جادة في نقد العقل الإسلامي وإخراجه من حالة الرداءة التي آل إليها.

قائمة المراجع.

- ابن منظور، (د ت). لسان العرب، مجلد 1.
- أركون، محمد. (1990). أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، بيروت، لبنان، تر هاشم صالح، ط2، دار الساقي.
- أركون، محمد. (1996). العلمنة والدين، بيروت، لبنان، ط3، دار الساقي.
- أركون، محمد. (1996). الفكر الإسلامي قراءة علمية، بيروت، لبنان، تر هاشم صالح، ط2، مركز الإنماء القومي.
- أركون، محمد. (1996). الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، بيروت، لبنان، تر هاشم صالح، ط1، دار الساقي.
- أركون، محمد. (1996). نافذة على الإسلام، لبنان، صياح الجهيم، ط1، دار عطية للنشر.
- أركون، محمد. (1998). نزعة الأنسنة في الفكر العربي، بيروت، لبنان، تر هاشم صالح، ط1، دار الساقي.
- أركون، محمد. (1999). الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، بيروت، لبنان، تر هاشم، صالح، دار ط1، الساقي.
- أركون، محمد. (2001). الإسلام أوروبا الغرب، بيروت، لبنان، هاشم صالح، ط2، دار الساقي.
- أركون، محمد. (د ت). قضايا في نقد العقل الديني، بيروت، لبنان، هاشم صالح، ط1، دار الطليعة.
- أركون، محمد. ا(2001). القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، بيروت، لبنان، تر هاشم صالح، ط1، دار الطليعة.
- الجابري، محمد عابد. (1999). الخطاب العربي المعاصر، بيروت، لبنان ط6، مركز الدراسات الوحدة العربية.
- الحفني، عبد المنعم. (1986). الموسوعة الفلسفية، القاهرة، مصر، ط1، دار ابن زيدون.
- الفجاري، مختار. (2005). نقد العقل الإسلامي عند أركون، لبنان، ط1 ، دار الطليعة.
- كيحل، مصطفى. (2011). الأنسنة والتأويل في فكر محمد أركون، الجزائر، ط1، منشورات الاختلاف.